حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السابع . شوال ١٤٣٨هـ / تموز ٢٠١٧م

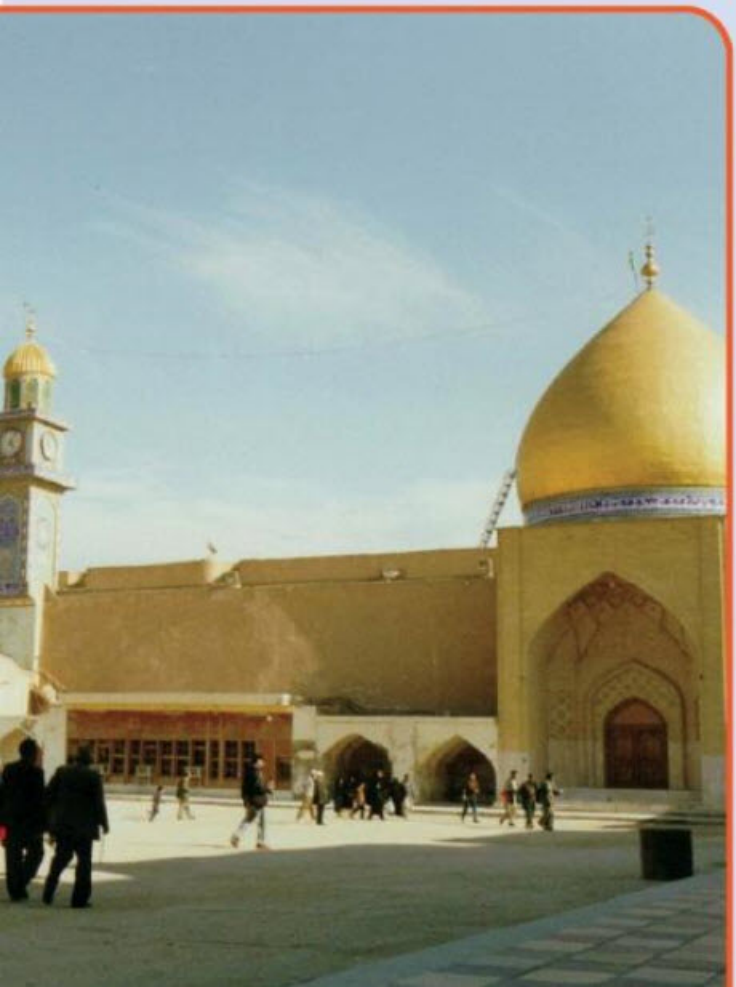

٧

دار الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

المباني العقلية في مدرسة الكوفة العلمية
الإمام الصادق (عليه السلام) أنموذجاً

الأستاذ المساعد الدكتورة راغدة محمد المصري
الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

شكلت الكوفة بعد المدينة المنورة، مصدر إشعاع وتنوع في القراءات المعرفية والدينية، وازدهرت في مناخ علمي خصب تميّز بحرية الفكر والاعتقاد وزوال دواعي الخوف والتقية من الحكام. برزت آنذاك مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في ظروف سياسية بعيدة عن أجواء الضغط والإرهاب، حيث عاش في مرحلتين سياسيتين مختلفين:

- مرحلة ضعف شهدت اضطرابات سياسية ودموية من انتفاضات العلويين والزيديين قامت تحت شعار الأخذ بثأر الإمام الحسين، وفتن وثورات سياسية كالقرامطة والزنج حتى آلت الدولة الأموية إلى السقوط سنة ١٣٢ هـ.
- مرحلة تثبيت الدولة العباسية والصراع على الحكم بعد أن كانوا قد رفعوا شعار العلويين الرضا من آل محمد للوصول إلى السلطة، ولم يكن لها في تلك الفترة القدرة على ممارسة إرهابها للحدّ من النشاط الفكري للإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

في هذه الأجواء عمل الإمام الصادق (عليه السلام) على تشكيل وعيّ الأمّة، وأرسى قواعد الفكر الصحيح لمواجهة الأفكار الدخيلة، والمذاهب الفكريّة المنحرفة، حيث استطاع أن يعطي الفكر زخماً وصل فيه إلى ذروته، برؤيته ونهضته العلمية الثقافية في مرحلة كانت تتطلب ثورة إصلاحية فكرية لمواجهة المستجدات التي كادت تطيح بجوهر الإسلام. من أبرزها:

١- عرف المجتمع الإسلامي عصراً ذهبياً بعد عملية الانفتاح الإسلامي على الحضارات والمدارس الفكرية الأخرى: الرومانية واليونانية والفارسية، ودخول أعراق وملل مختلفة، مما جعل الساحة الإسلامية مشرّعة لتبادل الأفكار والتفاعل مع الأمم والحضارات الأخرى وتوسّعت حاجات المسلمين، وازدحم الناس على أبواب الفقهاء يطلبون منهم الرأي فيما استجدّ عليهم، ولم يكن لدى الفقهاء معرفة بها، إذ لم يجدوا في الكتاب الكريم جواباً عنها، فاضطروا إلى اتخاذ القياس والاستحسان، والأخذ بالظنّ والرأي.

٢- شهدت هذه المرحلة تطوراً معرفياً على مستوى المعارف الدينية والفقهية الإسلامية تمخضت عنه مذاهب فلسفية متعددة وعقائد مختلفة. وتنوعت التفسيرات الفقهية والقراءات وتعددت الاجتهادات والمدارس الكلامية. فتسرّبت التأويلات المنحرفة إلى علوم القرآن الكريم، وطالت مباحث: التوحيد والصفات والنبوة وحقيقة الوحي والقضاء والقدر والجبر والاختيار، وتوزّع الناس بين أشاعرة ومعتزلة وقدريّة وجبريّة وخوارج، وظهر الزنادقة والملاحدة في مكّة والمدينة. وانتشر الزهد وفرق الصوفية في البلاد بعد استشراء حالة الفساد الإداري والخُلقي في عاصمة الخلافة ـ دمشق أوّلا، وبغداد ثانياً.

٣- شاع نقل الحديث عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) وكثر الدسّ وظهر الاختلاف في متون الروايات، ولم تسلم السنة النبوية بدورها من التحريف ووضع الأحاديث المكذوبة والمنسوبة إلى نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله). فكان يبلغ البعض حديثان مختلفان في مسألة واحدة، فكان الرواة يطلبون من أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) أن يدلّوهم على مقياسٍ لاختيار الحديث الصحيح. فوردت عنهم (عليهم السلام) الأحاديث المعالجة للأخبار المتعارضة والتي عُرفت بالأخبار العلاجيّة في الأصول.

واجه الإمام الصّادق (عليه السلام) الانحراف الفكريّ والفقهيّ والعقيديّ، على مستوى المفاهيم وفهم القرآن، فعمل على نشر الأحاديث الصَّحيحة، فملأت أحاديثه الكتب، وحدَّد القاعدة الّتي تساعد على تصحيح الأحاديث، وهي: العودة بكلِّ الأحاديث إلى القرآن الكريم، فكان (عليه السلام) يقول: "ما جاءك من روايةٍ من برٍّ أو

فاجرٍ يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك من روايةٍ من برٍّ أو فاجرٍ يخالف القرآن فلا تأخذ به".. وفي كثيرٍ من الرّوايات كان يقول: "ما خالف قول ربِّنا لم نقله[1]".

قال زرارة: "سألت أبا جعفر (عليه السلام) فقلت: جعلت فداك يأتي عنكم الخبران والحديثان المتعارضان فبأيهما آخذ؟ فقال (عليه السلام): يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذّ النادر. فقلت: يا سيّدي إنّهما معاً مشهوران مأثوران عنكم. فقال: خذ بما يقول أعدلهما عندك وأوثقهما في نفسك. فقلت: إنّهما معاً عدلان مرضيّان موثّقان. فقال: أنظر ما وافق منهما العامّة فاتركه، وخذ بما خالف، فإنّ الحقّ فيما خالفهم. قلت: ربما كانوا موافقين لهم، أو مخالفين فكيف أصنع؟ قال: إذاًفخذ بما فيه الحائطة لدينك، واترك الآخر. قلت: إنّهما معاً موافقان للاحتياط أو مخالفان له فكيف أصنع؟ فقال: إذاً فتخيّر أحدهما فتأخذ به، ودع الآخر."[2]

شملت مدرسته أصنافاً كثيرةً من المعارف الإسلامية والعلوم الإنسانية: الحديث والتفسير وعلوم القرآن وعلم الكلام وفنون العربية وكذلك علم الكيمياء والطب والفلك وعلم الهيئة والطبيعة وغيرها.

كما تميزت بكثرة من تخرج من هذه المدرسة على يد مؤسسها. وقصدها أئمة المذاهب منهم أبو حنيفة الذي يقول: "ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد الصادق"[3]. ومالك بن أنس الذي يقول: "ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً"[4]. ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح ومالك بن أنس والثوري وابن عيينة وشعبة وأيوب السجستاني وغيرهم.

توسعت دائرة الفقه والتشريع مع مدرسته،، اذ لم يرو عن أحد من الحديث، ولم يؤخذ عن إمام من الفقه والأحكام، ما أخذ عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) واعتبرت أحاديثه، وفتاواه، وما أخذ عنه، أساساً وقاعدة لاستنباط الفقه والأحكام لدى العلماء والفقهاء.

كان عدد طلابه يزيد على أربعة آلاف طالب في مختلف العلوم،. فذكر البلاذريّ أنّ أربعة آلاف من رعايا الفرس وفدوا إلى الكوفة وقد هاجر إليها فوق ذلك وفود من الصحابة والتابعين، والفقهاء. "وقد عدّ البراقي في تاريخ الكوفة ١٤٨ صحابيّاً من الذين هاجروا إلى الكوفة واستقرّوا فيها، ما عدا التابعين والفقهاء الذين انتقلوا إلى هذه المدينة، والذين كان يبلغ عددهم الآلاف، وما عدا الأسر العلمية التي كانت تسكن هناك. وقد أورد ابن سعد في الطبقات ترجمة لتابعيّا ممن سكن الكوفة".

انتقل الإمام الصادق (عليه السلام) إلى الكوفة أيّام أبي العباس السفاح، واستمرّ بقاؤه (عليه السلام) فيها مدّة سنتين.

وذكر الطوسي في (رجاله) ثلاثة آلاف ومائتين وسبعة من طلابه وابن حجر في (الصواعق المحرقة) "نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان" وروى النجاشي أن الحسن بن علي الوشاء قال:"أدركت في هذا المسجد ـ مسجد الكوفة ـ تسع مائة شيخ، كل يقول حدثني جعفر بن محمد"[5].

كان الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) يشجعهم على كتابة ما يسمعون ويوصيهم بحفظ كتبهم، عن تلميذه عبيد بن زرارة: "إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال قيدوا العلم، وفسّر له تقييد العلم، كتابته. ثم قال له: "احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها"[6].

وقال الشيخ المفيد "وإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقاة فكانوا أربعة آلاف رجل من أصحاب"[7] وكان (عليه السلام) يقول:"حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب وحديث علي حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحديث رسول الله قول الله عز وجل"[8].

الأصول التأسيسية للمعرفة:

- **المعرفة:**

اتبع الإمام الصادق (عليه السلام) المنهج التأصيلي في تحديد الأصول العلمية التي تنبثق عنها المعارف والعلوم، وكرّس تطبيقها في مختلف الاتجاهات الفكرية، ويمكن اعتبار مدرسته العلمية مدرسة تأصيلية، وضعت أصول المعرفة التي جاء بها الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسست لمناهج تطبيقية عبر نشرها من خلال آلاف التلاميذ والأتباع الذين حملوا عبء هذا العمل المعرفي. وفي قوله:"المعرفة أصل فرعهُ الإيمان"[9].

فالإمام الصادق (عليه السلام) جعل المعرفة أصل من دونها لا

(١) – ميرزا النوريّ، مستدرك الوسائل، ج ١٧، ص ٣٠٣.
(٢) – م. ن . ج ١٧. ض ٣٠٤ .
(٣) – الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٦٦.
(٤) – ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٣٧٢.
(٥) – الطوسي، الرجال، ٣١.
(٦) – الطوسي، الأمالي، ٩٥.
(٧) – المفيد، الارشاد، ٢٤٩.
(٨) – الكليني، أصول الكافي، ج١، ص٥٣.
(٩) – ميزان الحكمة، ج ٦، ص ١٣٠.

يتحقق الإيمان، وقصّر العقل عن إدراك غائية الوجود ومعنى الحياة والموت وطبيعة التكوين. بل هي أول الأصول. حتى انه جعل الإيمان فرعاً من فروع المعرفة، فلا يكون إيمان دون معرفة الله.

وتعددت المعاني للمعرفة عند الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) توافقت بما جاء في لسان العرب[١] منها:

- العلم وعليم: "والعريف والعارف بمعنى مثل عليم وعالم" وبهذا المعنى تكون المعرفة متحدة المعنى مع العلم." العرفان: العلم" وفرق بينهما بعضهم، "وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان عرفه يعرفه عرفة وعرفانا وعرفاناً ومعرفة واعترفه".

وجاء في مقاييس اللغة[٢] بمعنى التتابع والسكون والطمأنينة" العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة، فالأول العرف: عرف الفرس. وسمي بذلك لتتابع الشعر عليه والأصل الآخر المعرفة والعرفان. تقول: عرف فلان فلانا عرفانا ومعرفة. وهذا أمر معروف. وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه، لأن من أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه".

ومعنى الرائحة الطيبة والمعروف الحسن:" ومن الباب العرف، وهي الرائحة الطيبة. وهي القياس، لأن النفس تسكن إليها، والعرف: المعروف، وسمي بذلك لأن النفوس تسكن إليه".

كما تعددت المعاني للعلم" عنده، جاء في لسان العرب[٣] منها:

معنى العلم المطلق، وهو ما وصف الله به نفسه في كتابه الكريم،: "من صفات الله عز وجل العليم والعالم والعلاّم قال الله عز وجل وهو الخلاّق العليم وقال عالم الغيب والشهادة وقال علاّم الغيوب فهو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه وبما يكون"، وذلك لأنه سبحانه وتعالى مدرك لحقيقة الأشياء، وخفايا الأمور.

ومعنى العلم نقيض الجهل، "والعلم نقيض الجهل علم علماً وعلم هو نفسه ورجل عالم وعليم من قوم علماء فيهما جميعا قال سيبويه يقول علماء من لا يقول إلا عالما"

وجاء في مقاييس اللغة[٤] بمعنى التعلّم والتفقّه، "وتعلّمت الشيء، إذا أخذت علمه. والعرب تقول: تعلَّمْ أنه كان كذا، بمعنى إعلم"، ومن ذلك أن يقال متعلم ومتفقه.

(١) - ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٢٣٦.
(٢) - ابن فارس. معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٢٨١.
(٣) - ابن منظور، لسان العرب، ج١١،ص٤١٦.
(٤) - م. ن، ج٤،ص١١٠.

الوحي مصدر المعرفة

الوحي مصدر أساسي لمعرفة الإنسان عند الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، تبصره بغاية وجوده ومكانه من هذا الوجود، ومصيره، والعقل الإنساني هو أداة الفهم والإدراك والنظر والتلقي والموازنة، وهو الموجه للإنسان ودوافعه وغرائزه المختلفة، والعقل هو الذي يميز بين الخير الصحيح والصادق، وبين الخرافة والدجل، وزخرف القول.

والوحي دليل العقل، ومنه يستمد توجيهاته، وتعليماته الدينية والدنيوية، أما مصدر الوحي:

-كتاب الله: يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): "ما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنّة."[٥]

-سنة أهل البيت (عليهم السلام) عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام). علّم رسول الله(صلى الله عليه وآله) عليّاً (عليه السلام) ألف باب، يفتح كل باب منها ألف باب، إلى أن قال: فإن عندنا الجامعة، صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله(صلى الله عليه وآله) وإملائه من فلق فيه وخطّ علي (عليه السلام) بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكلّ شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرش في الخدش"[٦]

وعن هشام بن سالم وحماد بن عثمان وغيره، قالوا: سمعنا أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: "حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين (عليه السلام) وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ"[٧].

العقل وعاء للوحي، ومعبرٌ عنه، وناقلٌ له، وإن العلاقة بين العقل والوحي علاقة انسجام وتوازن، هذه التكاملية في الأدوار ينبغي أن توجه نحو الأهداف والغايات التي تحتاجها.

أسس المعرفة

حدَّد الإمام الصادق (عليه السلام) طريقا للمعرفة بناءً على أسس أربعة، فمعرفة الشيء تتضمن أربعة وجوه:[٨]

١. النظر إلى الشيء أموجود أو غير موجود؟
٢. معرفة ماهية الشيء في ذاته.
٣. معرفة كيفيته وما صنعته؟
٤. معرفة لماذا ولأية علة؟

(٥) - الكليني، الكافي، ج١،٥٩، كتاب فضل العلم.
(٦) - م. ن، ج ١،ص٢٣٨، كتاب الحجة.
(٧) - م. ن، الكافي، ج ١ /ص ٥٣، الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص٥٣٦.
(٨) - أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ج٢، ص٥١١.

أدوات المعرفة:

حدّد الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أدوات المعرفة في:

الأداة الأولى: الحس

الحسّ أول منبع للمعرفة عند الإنسان، والحسّ هو الحواسّ الخمس البصر، السمع، الشمّ، الذوق، اللمس. وكلّ واحدة من هذه الحواسّ تعطي الإنسان نوعاً خاصّاً من المعرفة، وبفقدان إحدى هذه الحواسّ لا يعود هذا النوع ممكناً له، وفي هذا المجال يقال "من فقد حساً فقد فقد علماً"، وينحصر دور الحواسّ في التعرّف إلى الأمور الماديّة. وكان الإمام الصادق يرى بأن الاعتماد فقط على التجارب الحسّية والتقليل من قيمة الإدراكات العقلية والتحليلات الذهنية إنما هو اتجاه سطحي.

الأداة الثانية: العقل

استعمل الإمام الصادق (عليه السلام) "العقل" أصلا من الأصول، إلى جوار القرآن والسنة والإجماع، مستمدا ذلك من القرآن الذي طالما خاطب فطرة البشر "لتعتبر" بما تدركه الحواس من آيات الله، وتتدبرها، وتستصحبها، لترى آلاءه على عباده. وتشهد تقديره وتدبيره. فتقنعهم بوجوده ووحدانيته وقدرته، فتصبح الدليل ما بعده دليل. http://ar.lib.eshia.ir/16002/1/284 - ftnref1[1]

عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال: "لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي وعليك أُثيب"[2].

وتعددت معاني العقل من:

– الإمساك والاستمساك، وحَبْسَةٌ في الشيء كَـ عَقَلَ البعيرَ بالعقال، وعَقَلَ الدواءُ البطنَ، وعَقَلَت المرأةُ شعرَها، وعَقَلَ لسانَه: كَفَّه الحبس ومنه العقل: الحابس عَن ذميم القول، والعقل هو نقيض الجهل. يقال عقل يعقل عقلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله. وجمعه عقول. ورجل عاقل وقوم عقلاء. وعاقلون. ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل"[3].

عن جعفر الصادق (عليه السلام) فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: "قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم"[4]

–الحجر والنهي، "العقل الحجر والنهى ضد الحمق والجمع عقول، وفي حديث عن عمرو بن العاص قال: تلك عقول كادها بارئها أي أرادها بسوء. عقل يعقل عقلا ومعقولا"[5]. وقد أورد ابن منظور العديد من المعاني للعقل.

وبهذا فإن مفهوم العقل يشير إلى أنه أداة العلم والمعرفة، والتمييز بين الأشياء، والحبس والحجر عن الوقوع في المهالك والمضار، وذميم القول والفعل لأن العاقل يعرف به الضار من النافع والخير من الشر.

من هنا جاءت دعوة إلى جعفر الصادق (عليه السلام) تنمية عنصر التعقل وإعطاؤه الدور الأساسي والتركيز على ضرورة الإيمان العقلي بأصول العقيدة أو في مسألة الحسن والقبح العقلي أو في مسألة الصفات الإلهية أو في مجال القضاء والقدر وغير ذلك، كان لها الأثر في `المجال الاستنباطي، حيث عاد العقل أصلاً من أصول الفقه، هذا فضلاً عن الحث على إعمال المنهج العقلي في مختلف مجالات المعرفة المختلفة في مجال النظر والتفكر، والاستفهام والسؤال، والاستنتاج والاستنباط والحوار والنقاش، وإثبات الحقائق وإبرازها، والإخبار عن القصص للتفكر والتدبر فيها، والدعوة إلى النظر في الآيات المعنوية والحسية ومدى نفعها للخلق وقدر فائدتها والمحصول منها، وبلا عقل فلا علم ولا معرفة. والعقل هو حجة على العباد. يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): "حجة اللّه على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين اللّه العقل"[6]

الأداة الثالثة: الحدس

يأتي الحدس ليعقل ما لا يعقل العقل."واعلم يا مفضل أن أعجب من هؤلاء المعطلة الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل؟ قيل لأنه فوق مرتبة العقل، كما لا يدرك بالبصر ما هو فوق مرتبته، فانك لو رأيت حجرا يرتفع في الهواء علمت إن راميا رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل، لان العقل هو الذي يميزه فيعلم ان الحجر لم يذهب علوا من تلقاء نفسه، أفلا ترى كيف وقف البصر عند حده فلم يجاوزه؟ كذلك ا لعقل يقف عند حد من معرفة الخالق فلا يعدوه ولكن يعقله بعقل أقوى، إن فيه نفساً[7]

(١) – عبد الحليم الجندي، المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن، صفحات ١١ إلى ٥٤.
(٢) – المحاسن: ١٩٢/١، كتاب مصابيح الظلم، باب العقل،
(٣) ابن فارس، أبو الحسين أحمد. معجم مقاييس اللغة، ص٦٩.
(٤) – الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٤، باب ٦ .
(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٤٥٨.
(٦) – الكافي ١. ٢٨
(٧) – الامام جعفر الصادق، رسالة التوحيد، ص ٢٤٨.

أساليب المباني العقلية عند لإمام الصادق (عليه السلام)

كرّس الإمام الصادق (عليه السلام) مبانيه العقلية من خلال.

الأسلوب الأول: النقاش والحوار.

ناقش وناظر الإمام الصادق (عليه السلام) بأسلوب حواري علمي لا يحمل لغة الإلغاء والمصادرة والتكفير، بالحجة والبرهان والدليل مع الماديين والزنادقة والخوارج والمعتزلة وبقية الفرق الدينية. كانت أكثر نسبة احتجاجاته مع رموز الملاحدة والزنادقة في عصره مثل الديصانيّ وابن أبي العوجاء ويأتي الاحتجاج مع أصحاب الرأي والقياس في الدرجة الثانية.

تنوعت مسائل الحوار مع الإمام (عليه السلام) بدءاً من الإنكار لوجود الله تعالى وتتمثّل في تيّار الزندقة وفي حواره معهم مثّل العالِم الحليم الهادئ المسيطر على كلّ نواحي المعرفة، ممّا أدّى إلى رجوع بعض الملحدين وإيمانهم بالله.

مرورا بأصحاب الفهم الخاطئ لمسيرة الشريعة. تيّارات عقائديّة وأخرى فقهيّة. تيّارات: الاعتزال والتفويض والإرجاء والتصوّف والرأي والقياس وانتهاءً بالسلوكيّات المنحرفة وتيّار الغلوّ إذ كال أنواع اللعن لهم وتمنّى الإبادة التامّة للغلاة.

تناولت مجالاته البحثية العقلية مسائل العقيدة دون قيد أو شرط سواء أكان هذا الموضوع متعلقاً بذات الخالق من إثبات وحدانيته، أو أسمائه الحسنى وصفاته. ومن الموضوعات التي اعتمد الإمام على المنهج العقلي لإثباتها الاستدلال على:

- وجود الله عن طريق الآثار وقانون العلية.
- حدوث العالم عن طريق حدوث أحد أجزائه (بيض الطاووس).
- وجود الصانع عن طريق بطلان تحصيل الحاصل وفاعلية المعدوم.
- بيان انحصار قدرة الله بالأمور الممكنة لا الممتنعة ذاتياً.
- بيان كيفية غضب الله وسروره وعدم تغيير ذاته.
- براهين إثبات النبوة، وحرية البشر وكونهم مختارين، وبطلان التناسخ، وعلم الله بالكائنات قبل الخلقة، وطرق معرفة الله تعالى.

الشك أول طريق المعرفة

في كتاب الإهليلجة المروي عن طريق المفضل بن عمر يستعمل الجدل العلمي، "أخبرني هل رقيت إلى الجهات كلِّها وبلغت منتهاها ؟.. فهل رقَيتَ إلى السماء التي تُرى أو انحدرتَ إلى الأرض السفلى فجلت في أقطارها.. فما يدريك لعل الذي أنكره قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك.. أما إذ خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة) فالشك بداية الطريق نحو المعرفة.

الأخذ بالدليل والبرهان

أقام الدليل على القضايا العقائدية الكبرى، المتمثلة بوجود الله تعالى، ووحدانيته وتنزيهه عن الولد، وإنزال الكتب وإرسال الرسل، والبعث والجزاء، وذلك بأدلة واضحة الثبوت قطعية الدلالة، والمغزى من ذلك تعليم العقل منهجية: الدليل والنقد العلمي، وتحليل الآراء وإرجاع الأقوال إلى أصولها وتتمتع بالدقة ومتانة الدليل.

قال الصادق (عليه السلام). «دع القياس والرأي وما قال قوم في دين الله ليس له برهان»[١].

عن أبي شيبة الخراساني قال: سمعت أبا عبدالله (عليه السلام)، يقول: «إن أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس، فلم تزدهم المقاييس من الحق إلاّ بُعداً، وانَّ دين الله لا يُصاب بالمقاييس»[٢].

وجاء في رسالة له إلى أصحاب الرأي والمقاييس: «وقالوا لا شيء إلاّ ما أدركته عقولنا وأدركته ألبابنا، فولاّهم الله ما تولّوا وأهملهم وخذلهم، حتى صاروا عبدة أنفسهم من حيث لا يعلمون، ولو كان الله رضي منهم ارتياءهم واجتهادهم في ذلك، لم يبعث الله إليهم رسولاً فاصلاً لما بينهم ولا زاجراً عن وصفهم...»[٣]

وفي وصية المفضّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبدالله (عليه السلام)، يقول: «من شكّ أو ظنّ فأقام على أحدهما، فقد حبط عمله، إنّ حجّة الله هي الحجّة الواضحة»[٤]

وحواره (عليه السلام) مع أبي حنيفة ببطلان القياس." يقول أبو حنيفة: (ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد) لما أقدمه المنصور الحيرة بعث إليّ فقال. يا أبا حنيفة. إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيّء له من مسائلك الصعاب. فقال. فهيّأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته. فدخلت عليه، وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخل لأبي جعفر، فسلّمت وأذن لي فجلست، ثم التفت إلى جعفر، فقال. يا أبا عبد الله. تعرف هذا ؟

قال. نعم، هذا أبو حنيفة، ثم أتبعها. قد أتانا.

---

(١) - الكافي: ٢٤٠/١، كتاب الحجة، باب فيه ذكر الصحيفة، الحديث ٣.

(٢) - علل الشرائع: ٨٨/١، الباب ٨١، باب علّة المرارة في الأذنين..

(٣) - الوسائل عن الكافي: ٤٣/٢٧، القضاء، باب ٦، من أبواب صفات القاضي ح ١

(٤) - المحاسن: ٢٠٩/١، كتاب مصابيح الظلم، الباب ٧، ح ٧٦

ثم قال: يا أبا حنيفة هات من مسائلك، تسأل أبا عبد الله !

وابتدأت أسأله، وكان يقول في المسألة. أنتم تقولون فيها كذا وكذا وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا، فربما تابعنا، وربما تابع أهل المدينة وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على أربعين مسألة ما أخرم فيها مسألة. ثم قال أبو حنيفة (أليس قد روينا أنَّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس "[1]

كما جاء في كتاب الاحتجاج للطبرسي،"قال الإمام الصَّادق لأبي حنيفة: انظر في قياسك إنْ كنت مقيساً، أيّما أعظم عند الله القتلُ أو الزنا؟

قال أبو حنيفة: بل القتل.

قال الإمام الصَّادق (عليه السلام): فكيف رضي في القتل بشاهدين ولم يرضَ في الزنا إلاّ بأربعة؟

ثمَّ قال الإمام الصَّادق (عليه السلام): الصَّلاة أفضل أم الصيام؟

قال أبو حنيفة: بل الصَّلاة أفضل.

قال الإمام الصَّادق (عليه السلام): فيجب على قياسك قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصَّلاة في حال حيضها دون الصِّيام، وقد أوجب الله عليها قضاء الصوم دون الصَّلاة..

ثمَّ قال الإمام الصَّادق (عليه السلام): البول أقذر أم المني؟

قال أبو حنيفة: البول أقذر.

قال الإمام الصَّادق (عليه السلام): يجب على قياسك الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول".

اتصفت حواراته بالتسامح، ولم يجد حرجاً أو حساسية في خوض أي مناقشة، مهما بلغت هذه المسألة من الوضوح، أو كانت من مقتضيات الفطرة الإنسانية، كما حث تلاميذه على التحلي بالصبر وسعة الصدر في جدالهم، وعلَّمهم في اتباع الآداب الحسنة، والأخلاق الرفيعة السامية التي منها:

- البعد عن تشويش المخالفين
- إنصاف الخصم
- الجدال بالتي هي أحسن
- القصد إلى إظهار الحق والتجرد من رغبة الانتصار وحب الظهور

الأسلوب الثاني: التخصّص العلميّ

تعدّ مدرسة الإمام الصادق الرائدة في مجال التخصص والبحث العلمي ويظهر ذلك من خلال اعتمادها.

(١) - سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٦ ص٢٥٨. الاحتجاج (للشيخ الطبرسي)

منهجية البحث العلمي

يُعَد جابر أوّل مَنْ أدخل التجربة العلميّة المخبريّة في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان قد أخذ هذا العلم عن الإمام الصادق (عليه السلام). ويوجه خطابه إلى الإمام الصادق في سياق (كتاب الأحجار): "وحق سيدي لولا أن هذه الكتب باسم سيدي صلوات الله عليه لما وصلت إلى حرف من ذلك آخر الأبد لا أنت ولا غيرك إلا في كل برهة عظيمة من الزمان".

التجربة بالتدريب

وضع التجربة أساس العمل ودعا إلى الاهتمام بالتجربة وحثّ على إجرائها مع دقّة الملاحظة، كما دعا إلى التأنّي وترك العجلة، وقال: إنَّ واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلاّ بها ولذلك

يقول: "وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة؛ فمَنْ لم يعمل ولم يجرِّب لم يظفر بشيء أبداً"[2].

وفي كتاب (الخواصّ الكبير) المقالة الأولى يقول: "إننا نذكر في هذه الكتب خواصّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنّاه وجرّبناه، فما صحّ أوردناه، وما بَطَل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضاً قايسناه على أحوال هؤلاء القوم"[3]

فكان يقول: "فمَنْ كان دَرباً كان عالماً حقاً، ومن لم يكن دَرباً لم يكن عالماً، وحسبُك بالدُّرْبَة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب يحذق، وغير الدَّرِب يعطل"[4]

وينقد القياس من الناحية المنطقية أو الرياضية ليترك المجال مفتوحا للحقائق القاطعة التي تثبت بالتجارب.

خطوات البحث العلمي

تلمس جابر طريقته في البحث العلمي في ثلاث خطوات رئيسية:

الأولى: الفرض النظري

الثانية: أن يستنبط من هذا الفرض ما يؤكده أو يدل عليه في الواقع المحسوس

الثالثة: الدقة في التجربة ومواصلة البحث والتطبيق كما نجد لدى جابر جذورا من المنطق التطبيقي تتجلى في نقده القياس يقول أن المُشاهد يتعلق بالغائب على ثلاثة أوجه[5] وهي:

(٢) - جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حققها ونشرها هولميارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر ابن حيان، باريس ١٩٢٨م.

(٣) - جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبير ص٢٣٢.

(٤) جابر بن حيان: كتاب السبعين ص٤٦٤ -

(٥) - عبد الله نعمة، فلاسفة الشيعة حياتهم -آراؤهم، ص ٢١٤-٢١٦، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

١-المجانسة،

٢-مجرى العادة،

٣-الآثار

يؤكد ضرورة الملاحظة الخارجية في تجاربه العلمية: حدوس أولية يراها العقل (رؤية مباشرة أو يوحي بها إلى نبي، ثم يتوارثها الخلفاء الشرعيون من بعده) ثم نتائج تلزم عن تلك الحدوس.

وفلسفة جابر الكونية هي عقلية تربط الأشياء بالروابط السببية لا تجعل السبب والمسبب أمراً عارضاً قد يكون أو لا يكون، بل تجعله أمرا ضروريا محتوما ما دام المسبب كان موجودا في سببه بالقوة قبل ظهوره بالفعل فكأنما السبب يلد مسببه ولادة طبيعية حيث يقول جابر: (إن في الأشياء كلها وجودا للأشياء كلها ولكن على وجوه من الإخراج) وفي هذا دلالة على أن الكون كله مترابط في وحدة واحدة فإذا رأيناه يتخذ ظواهر متعددة فهذه الظواهر يرتد بعضها إلى بعض ويخرج بعضها.

عرف عصر الإمام الصادق (عليه السلام) أوج قوته وعنفوانه، في خدمة العلم والمعرفة، وتطويرها فكان بحق عصر التنوير العلمي والمنطقي المتمثل في إنتاج المعرفة، وبلورة العلم. فإنَّه من الأهمية توظيف المصطلحات الإسلامية والتراثية التوظيف المناسب بعد أن مُنيَ العقل المسلم المعاصر بالتبعية والتقليد، والجمود والتطرف.

من هنا فإن دور العقل المسلم في البناء المعرفي ينبغي أن يرقى إلى درجة المسؤولية في فهم العلوم الموروثة، والاجتهاد والتجديد فيها بما يواجه التحديات الراهنة، ومعالجة قضاياه التاريخية والمعاصرة.